أبو مدين شعيب
ومكانته في التصوف المغربي[1]

الأستاذ عبد الوهاب فرحات

جامعة الأمير عبد القادر

هو شعيب بن الحسن الأنصاري ولد في حصن قنطيانة من أعمال اشبيلية في حوالي العقد الثاني من القرن السادس الهجري. وقد نشأ تواقا للمعرفة شديد التعطش إلى درك أسرار الشريعة، ولوعا باستكناه حقائقها.

لكنه لم يشتهر كفقيه مع أن الفتاوى كان ترد عليه ويرد عنها، و لم يعرف كشاعر مع أن شعره كان في الذروة العليا، ولكنه اشتهر كصوفي أهل المغرب كما عرف "عبد القادر الجيلاني "[2]بشيخ أهل المشرق.

ولا غرو فقد قام بالدعوة إلى التوحيد، والدين الخالص والجهاد في سبيل الله، وعمل على تجديد صلة الكثيرين من أهل المغرب بالله حتى تخرج على يديه أكثر من ألف تلميذ

1-أنظر في ترجمة: الغبريني عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة في بجاية، تح: رابح بونار ط٢. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٨١م ص ٥٥- ٦٥، ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تح: عبد الرحمان طالب، ط الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ١٩٨٦م. ص ١٠٨- ١١٤، المقرى نفح الطيب في غصن أندلس الرطيب، ط القاهرة ١٣٠٢ هـ. حـ : ص ٢٦٩ وما بعده، المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تح: محمد الجادور ط١ بيروت: دار صادر ١٩٩٩م، ج٢، ص ٢٣٧ - ٢٤٤، ابن العماد، شذرات الذهب، ط بيروت: دار الفكر [د .ت]. حـ ٤ ص ٣٠٣ وما بعده، اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ط١ حيدر آباد الركن: دائرة المعارف النظامية ٥٣٣٩ حـ ٣. ص٤٦٩ وما بعده، فؤاد افرام البستاني، دائرة المعارف، ط بيروت لبنان ١٩٤٥م. حـ د ص١١٦ — ١١٨، أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ط تونس: ١٩٨٥م حـ٢ ص ١٨٠- ١٨٦، ابن قنفد القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، تح: محمد الفاسي وأدولف فور ط١. المغرب: المركز الجامعي للبحث العلمي ١٩٦٥م. وقد جمع ابن العربي كثيرا من أخباره وفرقها في سائر كتبه وبخاصة منها: الفتوحات المكية، ومواقع النجوم، ومحاضرة الأبرار فلتراجع في تلك الكتب.

2 -فقيه حنبلي ومتصوف توفي عام٥٦١ هـ من مؤلفاته: الغنية لطالب طريق الحق، فتوح الغيب، الفتح الرباني، أنظر في ترجمته: ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص١٩٨-٢٠٣؛ ابن الملقن طبقات الأولياء، تح: نور الدين شريبة. ط٢. القاهرة: مكتبة الخانجي ١٩٩٤م ص٢٤٦-٢٤٧

ظهرت على يد كل واحد منهم كرامة كما يقول التادلي في التشوف[1].

والحقيقة أن بلاد المغرب العربي لم تعرف مربيا أو مرشدا حصل له من رجوع النـاس إليه كما حصل للشيخ ابي مدين، فقد رزق من حسن القبول، وقوة التأثير، وعلو الهمـة مبلغا عظيما حتى هبت بفضله في بلاد المغرب والأندلس ريح الإيمان وتشعشعت جمـرة الحب والحنان وعادت نفحة من نفحات القرون الأولى حتى انه يستحق أن يدعى بجدارة بمجدد علم السلوك والإحسان في القرن السادس الهجري، ولم يعـرف مثـل أتباعـه وأصحابه في الاستقامة والصلابة في الدين والحرص على اتباع السنة السَّنِيَّة في الأقـوال والأعمال والأحوال فسدوا بذلك طريق الإلحاد والزيغ على الكثـير ممـن انتسـب إلى التصوف وليس منهم في شيء وحسبنا أن نعلم في بيان علو كعبه في فهم حقائق الديـن ما قاله المحدث الفقيه "عبد الحق الإشبيلي"[2] صاحب المؤلفات الشهيرة في حقه لما كـان يحضر مجلسه هذا: "هذا وارث علي الحقيقة"[3]

والواقع أن أبا مدين بجهوده الدائبة من أجل إحياء البعد البـاطني مـن الإسـلام أو الجوَّاني منه استطاع أن يكسب المواطنة ونعني بها مشروعية الوجود للتصـوف السـني المعتدل في البيئة المغربية التي سئمت النظريات الفلسفية الغالية المتشحة برداء صوفي والـتي اشتهرت بها مدرسة "المرِّية"[4] ذات النزعة الإشراقية الواضحة.

1- التادلى، التشوق إلى رجال التصوف، ط١ الدار البيضاء: دار النجاح الجديدة ١٩٨٤م ص٣٢٤.

2-هو الإمام الحافظ صاحب التصانيف الجليلة القدر مثل الأحكام الكـبرى والصغـرى والعاقبـة والحاوي في اللغة في ثمانية عشر مجلدا ولد عام ٥١٠هـ وتوفي سنة ٥٨١هـ أنظر في ترجمته: الغـبريني، عنوان الدراية ص٧٣-٧٥؛ ابن العماد شذرات الذهب ج٣، ص٢٧١.

3-الغبريني عنوان الدراية، ص٧٣.

4-نسبة إلى المرية مدينة بالأندلس أو إسبانيا حاليا ينسب إليها ابن مسرة الجبلي الذي يعد المؤسـس الحقيقي لهذه المدرسة وقد توفي عام ٣١٩هـ ومن أهم مؤلفاته المطبوعة: كتاب الحروف والاعتبـار، أنظر في ترجته: محمد كمال جعفر، من التراث الفلسفي لابن مسرة تحقيق وتحليل ونقد ط١ القـاهرة ١٩٨٢م وهي الدراسة الوحيدة والأصيلة عنه بالعربية وينظر أيضا عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفيـة ط١ القاهرة دار الرشيد ١٩٩١ ص٣٦٣-٣٦٤، إبرهيم هلال، التصوف الإسلامي بين الدين والفلسـفة، ط١، القاهرة دار النهضة العربية ١٩٧٩م ص١٢٣-١٣٠.

منهجه في التصوف:

في هذه الظروف والملابسات الحسّاسة برز التصوف المديني المحدد الدي كان متـــاثرا إلى حد بعيد بدعوة الإمام العظيم أبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـــ) رائد الاتجــــاه الســـني المعتدل في التصوف والذي يقوم تصوفه على الزهد عن زخارف الحياة الدنيا والاستهانة بمباهجها وبمظاهر الجاه فيها .بالإضافة إلى اهتمامه بمعرفة أسرار العبادات والعناية بتعميق مفهوم الإحسان والولاية وقد حرص صوفينا على هذا اللون من التصوف مما أكســـب التصوف حق الانتشار والانتصار في البيئة المغاربية بعد أن كان يعد فيها كفرا وزندقـــة. ويحدد لنا العلامة الفاضل بن عاشور سمات التصوف المديني ومنهجه فيقول:

هو منهج التصوف السني القائم على الجمع بين الشريعة والحقيقة وقد استقى الشـــيخ أبو مدين أصول ذلك المنهج وأسراره بالحذق من إمام الطريقة الصوفية الشيخ عبد القادر الجيلاني وجعل مرجعه في ذلك كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي وقد جاء هذا المزج بين التصوف والفقه على طريقة الغزالي متجانسا مـــع روح العقليـــة الإســـلامية المسيطرة يومئذ على بلاد المغرب العربي بصفة خاصة تبعا لسياسة الموحدين وقد كــــان المهدي بن تومرت من أتباع الطريقة الغزالية وأشياعها[1].

وقد استطاع أبو مدين بمنهجه هذا تطهير حركة التصوف من الدخلاء فيها وتحديـــد معالمها فكان بحق كما يذكر المترجمون له "شيخ الشيوخ" أو"شيخ أهل المغرب" وصفـــه بذلك ابن العربي في مواقع النجوم[2] وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب[3]

وتتمثل هذه الأستاذية كما تظهر لنا في كثير من الشواهد نذكر منها:

1-الفاضل بن عاشور، أعلام الفكر الإصلاحي في تاريخ المغرب العربي، ط١، تونس، مكتبة النجـاح، ص٨١.
2-ابن العربي، مواقع النجوم، مطالع أسرار العلوم، ط١، القاهرة مكتبة محمد علي صبيـــح وأولاده، ١٩٦٥، ص ص٧١، ٩٦
3-ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب، (المرجع السابق)، ج٤، ص١٠٢.

١-قدرة أبي مدين على إنزال التصوف على مستوى الجماهير الشعبية فبعث بذلك في جسم الأمة الهامد روحا جديدة من النشاط والحيوية فعمل جهده علـــى تقويـــة صلـــة الكثيرين بالله، وتذكيرهم بالآخرة وتوجيه هممهم إلى السعي في تهذيب أنفسهم إلى مقـــام الإحسان، وإفراد العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى وهذا لا شك جوهر دعوة الأنبيـــاء والغاية من بعثتهم قال تعالى **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياتـه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾**[1]

وعلى هذا الأساس فلن ينجح الإسلام كدين، إلا إذا وجد دعاة له من هذا الطـــراز لتؤم الجماهير التي هي في مسيس الحاجة إلى التخلق بالأخلاق الإسلامية والانصباغ بهـا، والتقرب إلى الله عز وجل فكان أبو مدين من هؤلاء الربانيين الذي ورثوا من النـــبي ﷺ جانب إرشاد النفوس وتربيتها وقيادة الأرواح لوصال بارئها، وصقلها لتلقـــى تجلياتـــه وأنواره من خلال متابعة جادة لمسلك النبي ﷺ طلبا للشهود واليقين وسعيا إلى الكمـــال الإنساني وأقبل الناس عليه من كل حدب وصوب يتلقون منه الهداية والإرشاد فنفـــع الله به خلقا لا يحصون استفادوا منه فوائد في العلم والتزكية والربانيـــة الصادقـــة تحملـــت بمناقبهم كتب التاريخ [2].

يصدق فيهم قوله – رحمه الله –

يهدى التصوف من أخلاقهم طرفا … حسن التآلف منهم راقنى نظرا

هم أهل ودى وأحبابي الذين هم … ممن يجر ذيول العز مفتخـــرا[3]

1-الجمعة، آية ٢

2-انظر في مناقب أصحابه البهى النيال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، تونس: نشر وتوزيـــع مكتبة النجاح، ١٩٦٥م، ص٢٠٦-٢٤٧. ويمكن أن ينظر أيضا ابن العربي، روح القدس في محاسبة النفس. تح: عزة حصرية، دمشق، مطبعة العلم للجميع، ١٩٧٠م حيث ذكر ابن العربي في كتابه مـــن خمس وخمسين ممن تلقى عنهم نجد أغلبهم من تلاميذ أبي مدين رحمه الله رحمة واسعة .

3- أبو مدين، الديوان جمع وترتيب العربي الشوار .ط١، دمشق: مطبعة الترقي ١٩٣٨م ص٥٥.

ولقد كان هؤلاء أمثلة حية في الانصراف عن الدنيا والتقلل منها، والزهد في أهلها من أصحاب المال والرئاسة كما كانوا بحياتهم الساذجة البسيطة، وتواضعهم مع خلق الله وأنابتهم له، وعلو هممهم في طلب الآخرة، دراري مضيئة ألتفت حولهم الجماهير المسلمة، تتلقى منهم التربية والتوجيه وما ذاك إلا بفضل التأييد الرباني لمؤسس هذه الدعوة الذي كان نموذجا فريدا في الإخلاص، والصفاء، والفتوة والرغبة في الدنيا، والإقبال بكنه الهمة على الله واتباع السنة ومجانبة البدعة.

و لم يعرف أن مصلحا اجتماعيا استطاع أن يجمع حوله هذه الجموع الغفيرة من الأتباع والمسترشدين حتى ضاقت منه السلطات الحاكمة آنذاك.[1] ويؤثر في المجتمع هذا التأثير العميق إلا هذا الرجل الذي أكرمه الله بالتوفيق الإلهي حتى لم تبق من بقاع الجزائر أو المغرب أو تونس أو حتى مصر من خليفة من خلفائه يعلم الناس هضم النفس ومحاسبتها والاستقامة على الدين والصدق في العبودية والإنابة إلى الله عز وجل.

ولو لا هؤلاء الربانيين لخبت شعلة الإيمان وانطفأت مجمرة الحب الحنان، وابتلعت المادية هذه الأمة منذ أمد بعيد.

٢-إتزانه ودقته في التعبير بحيث أمكنه أن يجمع بين الشريعة والحقيقة في تصويره لحقائق التوحيد ودقائق التفريد بحيث عقد ألسنة الطعن التي كانت تشكك في معارف المتصوفة وعلومها وما يفتحه الله على قلوبهم من معارف إلهامية ولذنية فأضفى على التصوف الطابع الذي يقره الفقهاء كي يحافظ على روحانية هذا الدين المشرقة.

ولنتأمل في جملة من أقواله التالية:

---

1 -الغريني، عنوان الدراية، (مرجع سابق)، ص٦٠، المقري، نفح الطيب، (مرجع سابق) ج٤، ص٢٧٢.

"من اكتفى بالكلام في العلم دون الاتصاف بحقيقته فقد تزندق وانقطع ومن اكتفى بالتعبد دون فقه فقد خرج وابتدع، ومن اكتفى بالفقه دون ورع اغتر وانخدع ومن قلم بما يجب عليه من الأحكام تخلص ارتفع"[1]

ويقول في موضع آخر إذا رأيتم الرجل تظهر له الكرامات وتنخرق له العادات فلا تلتفتوا إليه ولكن انظروا إليه كيف هو عند الأمر والنهي"[2] لأنه ربما يرزق الكرامة كما يقول "ابن عطاء الله السكندري" [3] من لم تكمل له الاستقامة[4] وليس كل من ثبت تخصيصه عمد تخليصه كما يقولون ويقول أيضا: "كل من رأيته يدعي مع الله حالا لا يكون على ظاهره منه شاهد فاحذره"[5] ويقول أيضا: "كل من يدعى مع الله حالا ثم ظهرت منه إحدى خمس فهو كاذب أو مسلوب، إرسال الجوارح في معصية الله، والتصنع بطاعة الله، والطمع في خلق الله، والوقيعة في خلق الله، وعدم احترام المسلمين على الوجه الذي أمر الله[6].

وهذا الموقف الذي يقفه الشيخ من الشريعة ليس بموقف مزايد أو منافق أو يظهر خلاف ما يبطن كما قد يتوهم البعض ذلك لأن الشريعة في عرف المتصوفة ما هي إلا المظهر الخارجي الذي عبر به البعد الباطني – والمتمثل أساسا في التصوف أو الحقيقة عن نفسه – وما الحقيقة في نظر المتصوفة إلا الوجه الداخلي للشريعة، فالشريعة هي الرمز والحقيقة هي المرموز إليه.

1-أبو مدين، المنن الربانية الوهبية في المآثر الغوثية الشعيبية، مطبوع ضمن الديوان، (مرجع سابق)، ص٤٥

2-المرجع نفسه والصفحة.

3 فقيه ومتصوف من أجل تلاميذ أبي العباس المرسي خليفة الإمام أبي الحسن الشاذلي توفي عام ٧٠٩هـ من أهم مؤلفاته الحكم والتنوير في إسقاط التدبير، ولطائف المنن. أنظر في ترجمته: ابن العماد، شذرات الذهب (مرجع سابق). ج٦ .ص١٩ – ٢٠، محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ط بيروت: دار الكتاب اللبناني ١٣٤٩ه. ج١. ص٢٠٤.

4- بولس نويا، ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذلية، ط بيروت: دار المشرق ١٩٨٦م ص ١٥٧.

5- أبو مدين، المتن الربانية، (مرجع سابق) ص٤٦.

6- الكشغانوي، جامع الأصول ط القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٣١ه، ص١١.

والإسلام كما يذهب الصوفية عبارة عن وحدة ذات مظهرين أو وجهين لا انفكاك لأحدهما عن الآخر وهو معنى عبر عنه القشيري بقوله: "كل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة [أي التصوف] فهي عاطلة، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فهي باطلة"[1] وعلى هذا الأساس من الفهم العميق للإسلام صار أبو مدين ينظر للتصوف ويدعو إليه.

ولعل هذه الخاصية والمتمثلة في الاتزان التي اتسم بها أبو مدين هي التي مكنته بحكم إمامته أن يبتعد عن ألفاظ الشطح التي تورط فيها غيره من المتصوفة الذين سبقوه كالحلاج وأبي يزيد البسطامي ليسلم بموقفه هذا من الانتقاد إذ لا يخفى عليه الصراع المتجدد من حين إلي حين بين علماء الظاهر وبين المتصوفة ومن ثم حذر أبو مدين مريديه من إفشاء أي علم ينقضه ظاهر الشريعة، كما منعهم من التلبس بأي حال لا يكون على ظواهرهم منه أي شاهد من الكتاب والسنة

ولقد عبر الشيخ عن حقائق عالية في التصوف بعبارات طلية كانت غاية في الجودة والجمال استساغها الفقهاء وكلف بها أهل الذوق من ذلك قوله: "من علامات الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهد الحق"[2] ويقول: "بقاء الأبد في فنائك عنك وثمرة التصوف تسليم كلّك"[3] وفي حكمة أخرى يقول: "الحق لا يراه أحد إلا مات، ومن لم يمت لم ير الحق"[4] ويقول أيضا: "كل حقيقة لا تمحو أثر العبد ورسومه فليست بحقيقة"[5].

فهذا ولا شك أسلوب دقيق استطاع بفضله أن يعبر عن حقائق التوحيد وما يمكن لأهل الحقيقة أن يشيروا إليه من كشف في مشاهداتهم من غير أي انزلاق في العبارات

1- القشيري: الرسالة في علم التصوف، بيروت: دار الكتاب العربي [د.ت] .ص٦٣ مع تصرف بسيط.
2- أبو مدين المنن الربانية، (مرجع سابق) ص٥٢ .
3- المرجع نفسه ص ٥٢ .
4- المرجع نفسه ص ٥٠ .
5- المرجع نفسه ص ٥٢ .

الموهمة التي كانت وراء سوء الظن الذي حق بكثير من المتصوفة على مدار التاريخ، بـــل واتهامهم بالزندقة والكفر كما لا يخفى على من له أدنى إلمام بتاريخ التصوف والمتصوفة.

كما حرص صوفينا على الابتعاد عن التصوف الفلسفي ونظرياته في تفسير الوجـــود لأن الشيخ كان يدرك ببصريته النفاذة أن هذا اللون من التصوف في أحســـن أحوالـــه تصوف الخاصة من الأفراد وأبو مدين يريد –أولا وقبل كل شيئ– إصلاح مجتمعه عـــن طريق نشر الأخلاق الإسلامية والفضائل الصوفية كأخلاق المروءة والفتوة لأن المجتمـــع الإسلامي في مسيس الحاجة إلي ذلك.

ولقد كانت السمة التي طبعت التصوف المديني أنه تصوف أخلاقي عملي بعيد كـــل البعد عن أي عناصر أجنبية غريبة عن روح الإسلام وهذا ما كان ملحظا للسان الديـــن بن الخطيب في كتابه "روضة التعريف بالحب الشريف" يقول: "أشتهر خـــواص أهـــل السنة، المراعين نفوسهم وأنفاسهم مع الله، الحافظين قلوبهم من طوارق الغفلـــة، باســـم التصوف"[1].

ثم يضيف ابن الخطيب قائلا:

"ومنهم المشايخ آباء الرجال، مقتدحي زناد العباد، ومقتعدي كراسي الهداية، كـــأبي محمد"صالح الدكالي "وأبي العباس الرفاعي، وابي الحسن الشاذلي ن وعبد القادر الجيـــلاني وابي العباس المرسي وابي مدين"[2].

والواقع أن أبا مدين مرتبط بالغزالي الصوفي السني وكان يقول في كتابـــه الإحيـــاء "طالعت كتب التذكير فما رأيت مثل الإحياء للغزالي"[3] وتمسك أبا مديـــن بالكتـــاب والسنة واضح ولا أدل علي ذلك من حضور أساطين علماء عصره مجـــالس تذكـــيره،

1- لسان الدين بن الخطيب، روضة التعريف التعريف بالحب الشريف، الدار البيضـــاء ١٩٧٠م، ج٢، ص ٦٢١ .
2- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
3- الغربيني: عنوان الدراية (مرجع سابق)، ص٥٦.

"كأبي علي المسيلي"[1] و"أبو محمد عبد الحق الإشبيلي" [2] المحدث المشهور وغيرهم[3] فلو صدرت عن الشيخ ألفاظ الشطح لكان هؤلاء أول مبادر لإنكارها عليه ومن الغريب حقا أن نجد ابن تيمية — الخصم اللّدود لأصحاب التصوف الإشراقي- قد أكن احتراما وتقديرا للشيخ ابي مدين وشهد له بالتقدم وعلو الكعب في فن التصوف[4]. وجماع القول فقد كان أبو مدين صوفيا متحققا بالتصوف على أساس الكتاب والسنة وكان متمسكا بامتثال أوامر الله مجتنبا لنواهيه. بعيدا كل البعد عن مواطن الريب والشبه.

في منهجه العلمي الرصين واسلوبه في الحياة وهو ومظهر آخر تجلت فيه إمامة الشيخ أبي مدين وأساتذيته حيث كان الرجل مؤثرا للبقاء على الفناء و"للصحو على السكر"

وفي هذا المعنى يقول: "لسان المعرفة يدعو إلى الفناء والمحو والإثبات"[5] ولا شك أن مقام البقاء والصحو مظهر لكمال الولي وفي هذا الضمان الكافي لتحمل المسؤوليات والتبعات الأخلاقية والقيام بالأوامر والنواهي كما دعى إلي ذلك الأنبياء — صلوات الله وسلام عليهم — من لدن آدم إلي محمد — صلى الله عليه وسلم- بحيث يكون المتقرب في ظاهره مع الحكمة وفي باطنه مع القدرة أو يكون كما عبر على ذلك متأخروا الشاذلية[6] "القلب في الملكوت والجسد في الحانوت" وهي حقيقة عبر عنها الشيخ " محمد العربي الدرقاوي" (ت ١٢٣٩هـ) أحد كبار المجددين للمدرسة الشاذلية في بلاد المغرب العربي

1-هو الفقيه الزاهد المشهور بأبي حامد الصغير من أهم مؤلفاته: "التذكرة في أصول الدين. والنبراس في الرد على منكر القياس أنظر في ترجمته
الغبريني: عناون الدراية؛ ص ٦٦-٧٢.
2-تقدمت ترجمته.
3-الغبريني، عنوان الدراية، ص٥٧.
4-ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل، ط القاهرة: طبعة لجنة التراث العربي (د. ت)ج٢، ص١٧٩.
5-أبو مدين، المنن الربانية، (مرجع سابق)، ص٥٠
6-نسبة للشيخ أبي الحسن الشاذلي مؤسس هذه المدرسة توفي عام ٦٥٦هـ بمصر من أشهر تلاميده خليفته الأجل أبو العباس المرسي أستاذ ابن عطاء الله السكندري أنظر في ترجمته: اليافعي. مرآة الجنان ج٤، ص١٤٢ — ١٤٧، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٦- ٢٧٧، وأوفى ترجمة له ولآرائه ما كتبه عبد الوهاب فرحات، أبو الحسن الشاذلي حياته ومدرسته في التصوف، رسالة ماجستير قدمت لمعهد أصول الدين جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ١٩٩٥م .

في رسالة كتب بها إلى خليفته الأجل "محمد الحراق" حيث كتب له: "أن الشيخ الكامل هو الذي يكون في غاية السكر وفي غاية الصحو، وفي غاية الجذب وفي غاية السلوك، وفي غاية الفناء وفي غاية البقاء"[1] .

ومما له وودلالة في الإبانة عن تميز أسلوب أبي مدين في الحيات احترامه للحرية وتقديرها لقيمتها وفهمه العميق لفحواها وهي تعني في نظره صدق العبودية لله بحيث لا يكون شيئ مما دون الله مستقر له وفي هذا المعنى يقول: "لا تكون له عبدا ولغيره فيك بقية"[2] ويقول أيضا في حكمة طلية: "ما وصل إلى صريح الحرية من عليه لنفسه بقية"[3] ولاشك أن هذا معنى ساميا لا عهد للفلسفات المادية الغابرة والحديثة به.

وقد أساء بعض المتصوفة فهم معنى الحرية حيث زعموا أنه مادام بين العبد وبين الله تعالى تعبد فهو مسمى باسم العبودية، فإذا وصل إلى الله فقد صار حرا وإذا صار حرا سقطت عنه العبودية ؟

وإنما ضلّت هذه الفرقة لقلة فهمها وتضييعها لأصول طريق القوم ومن هنا نبه أبو مدين عن قصور هذا النظر وبيّن أن ترتيبات الشرع وأحكامه ليس منها لمرادات العبد واختياراته شيء وفي هذا المعنى يقول: "إنما حرموا الوصل بترك الاقتداء بالدليل وسلوكهم إلى الهوى"[4] وأكد هذا المعنى في حكمة أخرى: "من ضيع الفرائض فقد ضيع نفسه"[5] ويقول أيضا: "لا طريق أوصل إلى الحق من متابعة الرسول في أحكامه"[6] قال

1- محمد داود، تاريخ تطوان، ط٢، تطوان مكتبة قريمادسيس ج١٧، ص٢٨٩،
2- أبو مدين، المنن الربانية، ص٥٣.
3 المرجع نفسه ص٤٦ .
4-المرجع نفسه، ص٤٨.
5-المرجع نفسه، ص٤٩.
6-المرجع نفسه، ص٥٣.

تعالى **﴿فلا وربك لا يومنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾**[1].

وهو معنى حرص جميع شيوخ التصوف السني على تأكيده إذ هو مظنة مزلة قدم ولما زعم رجل في حضرة الجنيد[2] بأن أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل قال له الجنيد -رحمه الله-: "إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظيمة والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا، وان العارفين بالله ـــ أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا فيها ولو بقيت ألف عام لا أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها"[3].

ويقول أبو الحسن الشاذلي: "كل مختارات الشرع ليس لك منها شيء واسمع وأطع، وهذا موضع الفقه الرباني، والعلم اللدني وهو أرض لتترل علم الحقيقة المأخوذة من الله لمن استوى"[4].

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "غلط الغالطون وكثر الاشتباه على السالكين حتى زلق فيه من أكابر المدعين للتحقيق والتوحيد والعرفان ما لا يحصيه إلا الله الذي يعلم السر والإعلان"[5] ولا شك أن كلام أبي مدين المتقدم يدل على عمق فهمه للتصوف العملي المبني على الكتاب والسنة والقائم على قاعدة "اتبعوا ولا تبتدعوا" والذي صار يدعوا إليه.

1-النساء، الآية: ٦٤.

2-فقيه ومتصوف، كبير الشأن أجمع المتصوفة على تقديمه(ت٢٩٧هـ) أنظر في ترجمته: السلمي، طبقات الصوفية، تح: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٩٨م، ص١٢٩-١٣٥؛ ابن الملقن طبقات الصوفية، (مرجع سابق) ص١٢٦-١٧٤.

3-السلمي، طبقات الصوفية، ص١٣١.

4-نقلا عن: ابن عطاء السكندري، التنوير في إسقاط التدبير، ط١، القاهرة، المطبعة الحميدية المصرية، ١٩٠١م، ص٢٢.

5-ابن تيمية، العبودية، ط١.باتنة: دار الشهاب ١٩٨٨م ص١٤.

وتميز التصوف المديني كذلك أنه تصوف أخلاقي يقوم على أخلاق الفتوة والمروءة والكرم، وحسن المشاعر والتلطف في المعاملات وفي هذا يقول الشيخ في تحديد معنى الفتوة: "الفتوة رؤية محاسن العبيد والغيبة عن مساوئهم"[1] ولقد سمع الشيخ مرة واعظا كان ديدنه الوعظ عن طريق الترهيب فقال له: "لا تقنط الناس وذكرهم بأنعم الله"[2].

بهذه المواقف والنظرات العميقة في التصوف، ولمقاصد الشريعة نستطيع أن ندرك أهمية مكانة أبي مدين شعيب في التصوف المغربي.

و لم يقصر أبو مدين نظرته في محاولة تطهير التصوف من الأفكار الغريبة والممارسات المريبة حتى رأيناه يقدم الصوفية على أنهم رجال عمل، وأهل فعل وقد تجلى هذا واضحا في مشاركته إخوانه في الحروب المستعرة آنئذ في بلاد المغرب ضد الفرنجة[3] شأنه في ذلك شأن عبد الله بن المبارك قبله والشاذلي والأمير عبد القادر الجزائري وعبد الكريم الخطابي بعده مما يندهش له أولئك الذين يظنون أن التصوف مخرقة ودروشة ونشوة وانجذاب ففتح باب تجديد العمل الديني بعد أن كادت الأمة تغرق في آفتي التجريد والتسييس كما هو حالنا اليوم وما أشبه اليوم بالبارحة!

1-أبو مدين، المتن الربانية، (مرجع سابق) ص٤٨.
2-نقلا عن: عبد الحليم محمود، أبو مدين الغوث، ط٢، القاهرة: دار المعارف، ص١٠٢.
3-أنظر: أبا الهدى الصيادي، راحة الأرواح طبعة القاهرة، ١٣٢١ هـ ص٦٠؛ وينظر أيضا يوسف النبهاني، جامع كرامات الأولياء تح: إبراهيم عطوة. ط.القاهرة، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٩٦٢م ج٢، ص١١٧.